بين كفتي الثراء و الحياة

بلقيدوم هديل "الجزائر"

حين كان يضرب الأهل أطفالهم كان يظن الجميع أنه لا بأس بذلك لأنه كان يعتبر نوعا من التأديب لهم ولكن المفهوم الأصح لكل هذا أنه اساءة لمعاملة الطفل هكذا كانت أمي لقد قتلتني، هي لم تكن بحاجة الى مسدس كي تطلق علي النار لقد أنهتني بقلبها حين توقفت عن حبي فعلت هذا بالكراهية، الحقيقة أنها لم تستعن بأمور كبيرة حتى تضرني لقد أساءت لي بأمور صغيرة والأشياء الصغيرة هي من تسبب جروحا كبيرة، أمامها لم تكن لدي طاقة للكلام ولو كان هناك أهدأ من الصمت لفعلت فقط أغلق أذناي دون أي رد.كانت مرام تقص هذه الجمل على مسامع والدها المصاب بالشلل الذي لا يسعه الحركة أو الكلام لكنه على الأقل يستمع أليها ربما حين تروي له القليل عن ما يؤلمها سترتاح فمن الجميل أن تجد شخصا يستمع أليك لم يكن لديها أصدقاء لتحكي لهم ما تمر به عدا والدها وصديقها السري العم إحسان، قبلت رأس والدها وذهبت لتتجهز، وقفت أمام المرآة تراقب إطلالتها سائلة نفسها: لما على الناس ارتداء مثل هذه الملابس المزركشة بالزينة الثقيلة، قطع المجوهرات التي تتعدد فيها الألوان أبدو كلوحة فنية ثم تأملت وجهها تتفحصه

عندما رأت انعكاسها شعرت كأنها تنظر الى شخص آخر، شخص لم تره من قبل، لما تعتقدون أنها أحست بهذا أو بتلك الطريقة فجأة؟ ربما لأنها أرادت نكران حياتها في الآونة الأخيرة ثم قالت: أنا حقا أحسد الناس الذين يمكن أن يكونوا صادقين يقولون ما يريدون ويفعلون ما يحبون غير مجبرين على التصرف وكأنهم أناس آخرون، قطع تأملاتها طرق الباب فتنهدت يبدو أنه قد آن الوقت لتكون الابنة المطيعة والمدللة صغيرة والدتها حان موعد بدء مسرحية العائلة السعيدة. خرجت متصنعة الابتسامة تجول مع أمها بين الحاضرين يحسدها الناس على غناها ودلالها ولكنهم لا يعرفون الحقيقة فلكل شخص قصته ولا يجب ان توضح كل شيء لأنك تعيش حياة مختلفة فقط. قامت والدتها تعرفها على الحاضرين وتوقفا عند أحد ما القيا التحية عزيزتي هذا الطبيب فاروق صديق قديم لوالدك يمكنك اعتباره فردا من الأسرة قالتها والدتها وهي تقدمها اليه سأترككما للحظة هنا وذهبت تاركة وراءها ذئبا متعطشا لأكل غزال بمفرده لم تهتم مرام للواقف أمامها لأنها تشعر بالضجر وتريد فقط انقضاء هذا الحفل الممل شعرت يدا تلمس كتفها فطمأنها لا تخافي يا صغيرتي هذا أنا فقط فأجابته: ايها العم فاروق وان كنت أنت لا يحق لك لمس فتاة دون اذن منها لكنه لم يرد عليها وأخذ يناظرها من الاسفل للأعلى شعرت بالقرف من نظراته التي توحي بالخبث فحاولت

تغيير الجو ريثما تعود والدتها فسألته هل تملك أولادا في مثل عمري ايها العم فضحك على سؤالها هل تتعمد احراجه بقولها لكلمة العم في كل مرة لكنه أجابها: اريد أولا امتلاكك ثم سنفكر في موضوع الأولاد لاحقا لا اصدق أنكي كبرت بهذه السرعة أنت تجعلينني أندم لإضاعتي كل هذا الوقت في السابق، اتسعت حدقتا عينيها لشدة وقاحته كيف يجرؤ على قول مثل هذا الكلام الا يخاف أن تخبر والدتها عنه ألا يشعر بالخزي أبدا كانت تريد الصراخ به حتى دلفت عليهما والدتها قائلة: هل قضيتما وقتا جميلا في الدردشة؟كانت ستجيبها لولا مقاطعته لها نعم لقد كنا نسترجع ذكريات طفولتها وكيف كبرت لم تتعرف علي بداية لكنها تذكرتني ووضع يده مرة اخرى عليها مردفا سنلتقي مرة أخرى وسأجعلك تتذكرين جميع ذكريات الطفولة وأستأذنهما بالرحيل فور ذهابه التفتت لأمها سائلة اياها: ألا تجدينه غريبا قليلا أعني أنه يبدو مثيرا للريبة، لم أرتح له كثيرا لكن والدتها صدتها بإجابتها وهل ارتحت يوما لأحد من ضيوفي؟ عليك التوقف عن العبوس ومحاولة الاختلاط مع الناس وسنتحدث في وقت لاحق وتركتها كالعادة هذا ليس بشيء جديد عنها هكذا هي والدتها تضع المجتمع في المقام الأول قبل ابنتها لم تجادلها بل خرجت من قاعة الحفل نهائيا ذهبت للحديث قليلا مع صديقها السري وجدته نائما فأيقظته: هيا انهض أيها العجوز لقد أحضرت

لك بعضا من الطعام والحلوى لنأكلها معا فأجابها: لست نائمًا كنت أنتظر قدومك وجلست بجانبه واضعة رأسها على كتفه فأخذ يمسح على شعرها كأنه يحثها على الكلام فقالت: لما يعشق الاغنياء مثل هذه الحفلات ويركضون لأجل المال دوما؟فأجابها: المال شيء حي اذا جلبته واهتممت به سيكبر الى مبالغ غير متوقعة ولكنه كلما كبر سيأكل صاحبه في النهاية الاشخاص مثل الأغنياء سيختفون وتبقى أموالهم كالذكرى فحسب لهذا لا تهتمي لهم أخبريني أذا هل تعرفت الى أناس جدد؟ ارتأى الى مخيلتها ذلك الطبيب فأخبرته بما فعل فحذرها منه لكنها قالت: لم يزعجني ما فعله او ما قاله لقد آلمني رد والدتي هي لم تستمع الى ما سأقوله بل صدتني بجوابها البارد فنظر اليها قائلا لا باس هذه ليست مرتك الأولى مع ردودها فنظرت اليه مجيبة: لكنه سيء أن تصاب بالأذى من أمك لمرة واحدة يؤلم أكثر بمائة مرة من أن تتأذى من شخص اخر، فقط لا زلت اشعر بالأذى كأنها مرتي الأولى معها. أكملا حديثهما قليلا ثم قالت: والان علي الذهاب حتى لا تلحظ أمي غيابي هيا ساراك غدا لا تنسى أن تأكل الطعام وتتغطى جيدا فاليوم برد شديد وقامت بتوديعه. فور رحيلها أتاه صوت من خلفه يساله: لما تولي هذه الطفلة اهتماما كبيرا؟ فأجابه العم احسان: حالها لا تختلف عنا بل يمكنك القول اني أشعر بالسوء اتجاه الناس التي تبدو متوترة مثلها توترهم الدائم

يعطيك نظرة عن ماضيهم أنت تعلم أن الأطفال ينضجون بسرعة عندما يتأذون خاصة من طرف الاهل يمكنني رؤية هذا في عينيها لذلك أشعر دوما بالخوف من معرفة ما يحدث معها أو ما حدث مع غيرها من الأطفال أتساءل داخلي هل الآباء يسامحون أنفسهم من الداخل على كل الاشياء السيئة او البشعة التي فعلوها لأطفالهم.في الجهة الأخرى عادت مرام الى الحفل واستأذنت من والدتها بالانصراف من الحفل متحججة أنها تعاني من الحمى فتركتها، صعدت أولا للاطمئنان على والدها ثم توجهت صوب غرفتها غيرت ملابسها واستلقت على فراشها، وراحت تتذكربعضا من كلام العم احسان الذي قاله لها حينما أخبرته ان والدتها قد تغيرت لأجل المال وأنها تشتاق الى الماضي وأن الحاضر يختلف عنها فرد: إن أردت الاعتياد على هذه الحياة عليك التركيز على الحاضر عوضا عن ماضيك لأنه في بعض الاحيان هنالك أشياء لا يمكنك اعادتها أو اصلاحها ابدا لكن لا يمكنك الاستسلام لغيرها من الاشياء الاخرى لأن الاستسلام مجرد كذبة وخداع للنفس فقط لأن الحياة لا تسير دوما بما تشتهي اهوائنا قطع حبل ذكرياتها قرع خفيف على الباب كانت ستنهض لتستعلم هوية الطارق لكن الباب فتح و يا ليته لم يفتح ومن يكون غيره لقد كان الطبيب فاروق تفاجأت من مجيئه وتوترت أكثر عندما قام باغلاق الباب وراءه فقامت من مكانها تسأله بتلعثم:

ما لذي أتى بك الى هنا ايها العم؟ لكنه انفجر ضاحكا مجيبا اياها: هل تعتقدين انك تشعرينني بالحرج لمناداتك لي بالعم لا يهمني قط فارق السن بيننا ففي النهاية هذا لا يشكل معضلة لدي شعرت بالقشعريرة تسري في جسدها من كلماته فهي من النوع الذي لا يحبذ تبادل الأحاديث مع الغرباء خاصة امثاله فابتسمت محاولة تغيير الموضوع قائلة: هل ارسلتك أمي لتحضرني الى الحفل؟ يمكنك الذهاب لقد غيرت رأيي وأشعر بتحسن الآن سأنضم اليكم بعد قليل كانت تحاول طرده باي طريقة لكن الأمر لم يفلح معها فأخذ يسير نحوها وهو يقول: وهل علي اخبار أمك عند مجيئي الى هنا لا أظنها فكرة سديدة ولا أظن أن والدتك ستقبل الا اذا كان لها رأي أخر في هذا نظراته لها تجعلها تشعر بالاشمئزاز من نفسها لم ترتح له منذ البداية وأخذت تفكر داخلها تسال نفسها اين والدتها لما لا تتواجد معها في مثل هذه المواقف؟ صحيح انها منزعجة منها، لكنها لو كانت هنا الآن لركضت اليها تاركة خلافاتهما وراءها لتعانقها كأنها لم تكن معها يوما كأنها لأول مرة تراها وقف أمامها بين أفكارها وهو يقول: - هل تعلمين لما اصبح والدك هكذا مشلولا دون حركة او كلام لأنه وقف أمامي كان يمكننا جني المال بطريقة أسرع لكنه رفض، كاد يسلمني للشرطة لهذا كان عقابه البقاء مشلولا طيلة حياته هل تعلمين لما تركته يعيش؟ مشاهدته يعيش حياته في ألم لوقت طويل ورؤيته

يموت بشكل بائس يشعرني بالبهجة الشديدة هل رأيت كم انا طيب القلب لأني لم اقتله على الاقل هو أمامك ترينه وقتما شئتي فكوني شاكرة لي كانت كلماته وحدة نظراته تشعرها بتضارب من الامواج داخلها هل تستحق كل هذا الكم من التعب نحن نعيش مرة واحدة فقط في الحياة لذلك ما الفائدة من أن يكون البشر ماكرين وأنانيين هكذا قامت تجري تريد الاختباء لمحت نافذتها مفتوحة ارادت القفز لكنه امسك بها من الخلف هامسًا لها: هل رايتي يوما فأرا يقع وسط مصيدة ويستطيع الخروج منها حيا؟ لا تظن هذا حتى لو نجح بهذا يجب عليه الحصول على بعض الجروح لتبقى ذكرى جميلة لديه، فالذكريات السيئة هي أيضا جزء من الحياة ستبقى معك ولا تزال جزءا منك، أنزلها من على النافذة ملقيا بها على الارض أخذ بضربها حتى يجعلها تفقد الوعي لكنها قامت بعضه في لحظة ما وأخذت بالصراخ عاليا علّ شخصا عابرا يسمعها، يناجيها، وينقذها لكن سرعان ما بدأ المكان يبدو مظلما لها فسقطت مغشيا عليها. فتحت عيناها ببطيء تجاهد لتستوعب اين هي نظرت مطولا أنها غرفتها لكنها لا تتذكر ما حدث، حتى دخلت عليها خادمة كبيرة في السن بعض الشيء تتفحصها فسألتها عما حدث؟ فأجابتها: أنها نامت يومين كاملين من شدة تعبها الشديد استغربت مرام حديث الخادمة لم تترك لها مجالا آخر لطرح أسئلة أخرى فقد خرجت أخذت تحاول أن تتذكر ما حدث معها

عاذت بذاكرتها قبل يومين تتساءل عما ولحسن حظها تذكرت تنهدت فرحة لقد نجت من مصابها قامت تتفحص جسدها بعض الجروح لكنها ليست ببليغة بعد مدة وجيزة دخلت والدتها فركضت محتضنة اياها كانت تظن أنها ستحاوطها بذراعيها لكنها تفاجات بصفعة على وجهها اسقطتها ارضا قائلة لها: هل ارتحت الآن لقد اصبحنا حديث الصحافة ايتها الحمقاء لم يكن علي تركككي تغادرين الحفل أبدا من الجيد انني تعاملت مع المسألة بسرعة أفاقت مرام من صدمتها فسألتها: اي مسألة يا أمي اقول ان ذلك الطبيب قد حاول الاعتداء علي لا يوجد اي شيء ستتعاملين معه هو سيجز به في السجن فحسب ناظرتها أمها بعيناها مجيبة اياها: هل تظنين انني سأضع طبيبا مشهورا مثله في السجن هل جننت يا هذه هل تريدين مني أن أخسر سمعتي من سيعيل عائلتنا أيتها الغبية ستختفي كل نقودنا سينظر الينا المجتمع نظرة ازدراء جراء هذا الفعل، فتحت الاخرى ثغرها تشعر كأنها تلقت صفعة من كلام والدتها مكملة لقد اخبرت الصحافة أنك سقطتي من الظلام لهذا اصبت بخدوش وعندما حاول الطبيب مساعدتك ظننتي انه سارق فقمت بمهاجمته وبينما أنت تركضين اغمي عليكي من التعب والخوف هذه قصة جعلت بعض الأفواه تخرس لا تصدق مرام مالذي تستمع اليه كانت تود سؤالها عن الطبيب مالذي حل به لكنها انصرفت تاركة اياها تتخبط وسط شهقاتها، يمكن للأم

ان تكون قاسية غير حنونة أو غير مبالية لكن لا يمكن أن تكون كحيوان جشع دون قلب ففي النهاية تظل انسانا آدميا يحس ظنت ان داخلها تختبئ أم حنون لكنها وحش حقا الجميع يعتقد أن الانسان الحقيقي يكمن داخل ذلك الشخص لكن لا يوجد شيء من هذا القبيل فقط أفعاله تحدد من هو لقد ظنت عندما تستيقظ أنها سترتاح بعد هذه الحادثة لكن لم يحدث هذا ففي اللحظة التي استرخت فيها حصلت على لكمات مفاجئة من الحياة حقا العيش هكذا هو قلق مستمر أخذت تشعر بالاختناق، كما لو أنها ستموت لا يوجد ماء هنا لكنها تحس أنها تغرق، تجبر نفسها على التنفس ذهبت خفية لترى والدها ملاذها الآمن لكن غرفته كانت مغلقة فتسللت الى الخارج الى رفيق وحدتها لكنها لم تجده ظنت أن العم احسان يتجول في مكان ما فقررت انتظاره فأتاها صوت من خلفها قائلا: لن يأتي هو لم يعد موجودا بعد الآن لم تفهم أقواله فاردف عندما لم تأتي اليومين الماضيين انتظر قدومك مطولا لم يأكل شيئا ظنا منه انكي ستأتين ولكن عندما أطلتي الغياب ذهب الى منزلك لكن الحراس منعوه من القدوم وضربوه ضربا مبرحا ومع هذا انتظرك في ذلك البرد والمطر يتساقط لم يتحمل جسده هذا لقلة ضعف قلبه مع الاسف لقد توفي تاركا لكي هذا الوشاح، لكنها لم تصدق كلامه لم تستطع استيعاب ما يقوله واخذت تصرخ فتركها ورحل جلست ممسكة بوشاح العم احسان تتحدث اليه:

هل حقا ذهبت؟ لقد قلت مرة أن القدر لا يهمك إذا ظهر أحدهم بينما يحتاج لك أنت لن تتركه لهذا أين انت لأن أنا بحاجة اليك لما فعلت هذا لما أتيت الى منزلي وأنت تعلم أنه مكان دون رحمة مالذي دفعك الى نقطة محاولة قتل نفسك لا يوجد أحد معي الآن شخص يمكنني الاعتماد عليه عندما تصعب الامور سيكون هذا كافيا لي يبدو انني سأكون وحيدة مجددا أرجوك عد الي أنا حقا متعبة من هذا العالم المملوء بالناس الذين يتصرفون وكأنهم مذهلين أنا لست جيدة في أي شيء أرغب بالموت لقد قلت أنك ستبقى الى جانبي فأين أنت؟ تواجدي معك يجعلني أحس بالأمان والسعادة رحيلك يجعلني أبكي يؤلم قلبي أشعر بفراغ لأنك لست برفقتي من جهة أخرى انا اسفة وحسب اسفة بشأن كل شيء ذنبك داخلي يصعب علي تحمله لفت نفسها بالوشاح تجر خسارتها معها. حينما دلفت الى المنزل سمعت والدتها تتحدث بصوت خفي: لا يهمك لن تتحدث بأي شيء هي نائمة الان لا عليك لقد اخذت نصيبها من العقاب كما اتفقنا اريد ان يكون المال جاهزا غدا انت تعلم لا أحد يصمت مقابل لا شيء واغلقت الخط، حينما استدارت وجدت مرام تنظر اليها بدهشة لا تعي ما قالته امها قبل قليل فسالتها: هل دفعتي المال كي تجعليني اصمت؟ فأجابتها: أنا أنقذتك فعلت هذا من اجلك، فانفجرت مرام ضحكا من كلامها وقالت: اعرف انكي فعلت هذا لأجل المال حتى حياتي هي بالنسبة اليكي

لعبة في بعض الأحيان اشعر بالشوق، الأسف، والحزن معا في نفس الوقت كل هذا يعتبر ندما لقد واصلت الوقوع في شباك الرحمة ظنا أنكي ستتغيرين يوما هل استحق منك كل هذا الكره حقا ألست أنت أمي من أنجبتني ثم مالذي فعلته لأجلي هل نسيت بالفعل كل ما جعلتني اقاسيه ألا يمكنكي أن تكوني لطيفة يوما هل تفقد كلماتك معناها أذا قلتها لي بلطف ولو لمرة واحدة يبدو ان الحياة لم تعطيني ما أريده أبدا وركضت الى غرفتها مسرعة متجاهلة نداءات والدتها اغلقت الباب بالمفتاح ووقفت امام المرآة تحدث نفسها: لا يمكن لأحد تغيير ماضيه او التخلي عنه وكأن شيئا لم يكن سأبذل قصارى جهدي لجعل الحاضر أكثر قيمة فالحياة تعني المقاتلة وسط معاناتك، قامت بقص شعرها تغيير ملابسها وخرجت الى المكان المنشود أين ستقام تهاليل الحق..

بعد مرور يوم كامل

بعد عدة محاولات كثيرة في الاتصال بها حملت هاتفها وظهر أمامها رقم والدتها على شاشته قامت بالرد فسألتها: اين انت ايتها الحمقاء؟ هيا ردي علي أني أسألك، فأجابتها: هذه أول مرة أشعر فيها بالحرية لقد ذهبت اليوم للتسوق وشاهدت فيلما أكلت الكثير من الطعام أيضا لكني ظللت أسال نفسي لم أفعل هذا؟ ما الشيء المهم في كل هذا؟ حاولت

الابتسام متعمدة لكن كلما ابتسمت كلما زاد اكتئابي حقا أشعر بالغيرة من الأشخاص الميتين والذين لم يولدوا حتى الآن لن يشعر كل هؤلاء بالحزن، الألم ولا الخوف أيضا قالت هذه الكلمات وارادت اغلاق الخط حتى سألتها والدتها الى أين ستذهبين من سيكون معكي وماذا عن والدكي؟كيف سأجيبه أن سأل عنكي؟ فردت: لن يكون بصحبتي أحد لأنكي لم تتركي

أحدا كي يكون معي أما عن أبي أخبريه أني ذهبت لاستنشاق هواء الحرية قليلا وأني سأعود وآخذه معي يوما ما سيفهم مغزى كلامي، الى ذلك الوقت عليكي أن تعتني به حتى لا تدمري سمعتك في المجتمع صرخت والدتها بها: هل يعلم أي أحد أنكي قاتلة؟ فضحكت بأعلى صوتها مجيبة: وهل تعلمين انت انني قاتلة؟ كان هذا السؤال يكفي لجعل والدتها تفتح ثغرها مثل هذه الإجابة تبدو لشخص دون قلب لم تعرف هل هذه حقا ابنتها هي من أنجبتها لكنها لم تربيها هكذا قبل ان تضيف اي كلمة قطع الاتصال، رمت مرام الهاتف في النهر وسارت عازمة بتغيير حاضرها تلف وشاح العم احسان حول عنقها، تشتم رائحته صورة والدها التي تزين جيب سروالها وانطلقت لتخط مستقبلها بعيدا عن كل ما يؤلمها.

نحن نعيش بينما نفقد أشياء غالية علينا، وبينما يتركنا الأشخاص الذين نحبهم نفشل، نيأس، يساء فهمنا نتلقى الجروح ونعيش دون أن نستطيع النوم بسبب الألم، اولئك الذين مروا بهاته الأوقات فقدانهم لشخص ما آلامهم وجروحهم أستطيع فهمكم بقلبي لا بعقلي هكذا سيكون الألم بيننا مشترك..

***